

# الاسلام وتنظيم العلاقات الدولية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

وَدَلْ كَلِيَّةِ الشَّرِيْعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على نبي الرأفة والرحمة والهداية .

أيها السادة :

كان العالم ، قبيل الدعوة الإسلامية ، يتخبط في ظلمات داجية من أشرك والوثنية والجهل والعصبية ، والظلم والاستبداد .

كانت الظاهرة العامة التي تنتظم اوجود اذ ذلك هي الفساد في كل شيء : فساد في العقائد، فساد في الأخلاق ، فساد في العلاقات الاجتماعية ، فساد في نظم الحكم والسياسة . كان الناس يعيشون في أسر الأوهام والأباطيل ، والشبهات والعقائد الفاسدة . كانت الفرائز الحيوانية . والطباع الوحشية مسيطرة على أخلاقهم ، وتصرفاتهم ، بينما الصفات الانسانية في غفلة وذحول .

كانت علاقة الفرد بالفرد والأمة بالأمة تقوم على أساس الموازنة بين الضعف والقوة يفتك الأقوياء بالمستضعفين ، ويستلب القادرون حقوق عاجزين ، ويستنزف الغالبون دماء المفلولين . كانت قاعدة السياسة بين الحاكين والمحكومين هي شهوات الرؤساء ورغبات المسلبين : يتحكرون في الرقاب والأموال والأرواح والأعراض ما شاء لهم الهوى والغرض وما أسعفتهم عوامل القوة والبطش والجبروت .

من أجل ذلك قضت حكمة الله أن ينتشل العالم من حماة هذا الفساد وأن ينقذه من براثن هذه الفوضى . وأن يداويه من تلك الأمراض الفتاكة التي تنفست نفثي الوباء في جميع الأرجاء .

وهكذا بزغت شمس الإسلام ، فبددت ذلك الظلام " قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " .

## عناصر الدعوة الإسلامية :

تلخص الدعوة الإسلامية مهما تشعبت فروعها في مبدأ واحد هو "دعوة العالم إلى الخير" فإذا أردنا أن نفصل في هذا المبدأ بعض التفصيل قسمناه إلى نواح ثلاث هي : التوحيد ، والمساواة ، والمدل :

(١) أصلح الإسلام بالتوحيد فساد العقيدة . فدعا الناس إلى احترام عقولهم بهجر ما كانوا عليه من الأوثان ، معلنا أن للكون ربا عظيما ، وإلها مدبرا حكما هو الجديروحدة بأن يعبد "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" (١) .

ولم يخرج بهذه الدعوة على أصل الفطرة وطبيعة الإنسانية ، ولم يخالف بها دينان من الأديان قبله "فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (٢) ، "وَشَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّمَرَّقُوا فِيهِ" (٣) .

(٢) وقرر بالمساواة مبدأ الوحدة الإنسانية التي لا تعرف التفريق بين جنس وجنس . ولا بين لون ولون ، ولا بين عنصر وعنصر "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ" (٤) ، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" (٥) .

(٣) وقضى بمبدأ العدل على الظلم والتحكيم والاستبداد . وأقر به الأمن والطمأنينة والرضا ، ولم يفرق فيه بين قريب وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ولا بين مؤمن وكافر "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" (٦) ، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَّبِعُوا أَعدْلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" (٧) .

على هذه الأسس بنى الإسلام سياسته الإصلاحية فيما بين المسلمين بعضهم وبعض . وفيما بين المسلمين وغيرهم من الأمم المختلفة .

- |                                  |                                |
|----------------------------------|--------------------------------|
| (١) الآية : ١٠٣ من سورة الأنعام  | (٢) الآية : ٣٠ من سورة الزم    |
| (٣) الآية : ١٣ من سورة الشورى    | (٤) الآية : ١٣ من سورة الحجرات |
| (٥) الآية : الأول من سورة النساء | (٦) الآية : ٢٥ من سورة الحديد  |
| (٧) الآية : ٨ من سورة المائدة .  |                                |

والذى يهمننا في هذا البحث هو أن نعرض بتدرج ما يسمح به الوقت الى القواعد التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقات الدولية : وذلك ينظم :

- ( ١ ) معاملة الدولة الاسلامية لدولة أخرى .
- ( ٢ ) ومعاملة الدولة الاسلامية لمن يعيش في بلادها من غير المسلمين .

### العلاقة بالدول الأخرى :

إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم لا تخرج عن إحدى حالتين : إما حالة سلام ووثام ، وإما حالة حرب وخصام .

### حالة السلم :

وفي ضوء ما تقدم ترى الإسلام ينظر الى الحالة الأولى على أنها الحالة الطبيعية الأصلية ولا يطلب من غير المسلمين فيها الا أن يخلوا بينه وبين ما يريد من الدعوة الى مبادئه دون أن يضعوا في طريقه العقبات أو يشيروا أمامه الفتن والمشكلات ذلك بأن دعوته هي دعوة الحق والعقل والصلاح والرشاد، وأن العقول إذا خليت وشأنها ارتاحت اليها وآمنت بها عن طريق الاقتناع والرضا، لا عن طريق الإلجاء والقهر "أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (١) "وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (٢) "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (٣) "أَفَأَنْتُمْ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (٤) .

وهكذا يقرر القرآن أن الدعوة الى الله لا يكون طريقها الإلجاء والقهر ، وإنما يكون طريقها الحجة والبرهان . ولو تركه الناس يسرى بحجته وبرهانه وخلوا بينه وبين العقول ، ولم يضعوا في طريقه العرقل ، لما سفكت قطرة واحدة من الدم في سبيل الله ، ولنغزت دعوته العقول ونفذت إلى القلوب .

وإسلام يسلك في هذه الدعوة السامية الإقناعية كل طريق تواضع عليه الناس في دعوتهم الى المبادئ ودفاعهم عنها ، وبيانهم لمزاياها : من خطب في اجتماعات ، ومن كتب يرسلها الى الملوك والرؤساء ، ومن وفود يتلقاهم ويحسن وهداهم ويبين لهم ما يدعو اليه . وفي ظل ذلك السلم يترك الناس في شتى معاملاتهم الى طبيعتهم وما يرون أن يسروا عليه من نظم : يتركهم يتعاملون ويتبادلون المنافع ويتعاونون ويختلطون . لا يقيدهم في ذلك بقيد

١٢١ الآية : ٤٦ من سورة العنكبوت

(١) الآية : ١٢٥ من سورة النحل

(٤) الآية : ٩٩ من سورة يونس .

(٣) الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة

إلا ما تقتضيه طبيعة الشريعة بالنسبة للمسلمين من حظر أنواع من التعامل والعلاقات كالزنا  
وزواج الكلاب من المصاهرة ، وزواج المسلم ممن لا تدين بدين سماوى ونحو ذلك .

ولا يحظر الإسلام على المسلمين أن ينشئوا بينهم وبين غيرهم من العلاقات والمعاهدات  
ما يروونه مصلحة لهم وعوضا على حياتهم في شؤون التجارة والصناعة والسياسة والعلم والثقافة  
ينظمون ذلك على الوجه الذى يتبين صلاحه ، والذى تقضى به سنن الاجتماع الفطرية ،  
والذى لا يتعارض مع دستورهم الخاص .

والإسلام يقرر أنواعا من المصلحة التى يترك تقديرها لجماعة المسلمين .

وعلى هذا الأساس ينشئ المعاهدات إبقاء على حالة السلم الأصل ، وحفظا له من أن  
ينغدش ، ومن ذلك ما عاهد عليه النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب لأول عهده بالمدينة .  
وقد كانت هذه المعاهدة أول حجر في بناء الدولة الإسلامية ، كما كانت أول علاقة  
سياسية ينشئها الإسلام ، ويعترف فيها بحرية العقيدة وحرية الرأى ، ويحفظ بها على المسلمين  
أمنهم وسلامتهم وحرمة حياتهم ومدنيتهم .

وينشئ المعاهدات للتحالف الحربى بينه وبين غير المسلمين ويرشد الى هذا النوع من  
المعاهدات قول النبي صلى الله عليه وسلم : "ستصالحون الروم صالحا تنزول أتم وهم عدوا من  
ورائكم" ، وقد وقع للمسلمين كثير من هذا النوع من المعاهدات تم في ذكرياتهم الماضية ،  
وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم قريشا وفاء بعهد خزاعة الذى حصل يوم الحديبية .

وقد وضع القرآن الكريم أساس الدستور لهذه العلاقة السلمية اذ يقول : "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ  
عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١)" .

فهذه الآية الكريمة تبيح للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم  
يعتدوا عليهم في الدين أو الوطن ، بل تجيز أن تعصل هذه العلاقات الى حد البر بهم  
والإحسان إليهم .

حالة الحرب : هذه هي الحالة الأولى ، حالة السلم والوئام . أما الحالة الثانية : حالة  
الحرب والخصام ، فقد نظر الإسلام اليها من نواح متعددة .

إقرار الإسلام للحرب : نظر الى الحرب في ذاتها كأمر تدعو اليه طبيعة الاجتماع البشرى  
فلم يحاول أن ينكرها ولا أن يعارض مقتضيات الفطرة فيها ، ولكنه اعترف بها كوسيلة لا بد  
منها لدفع العدوان ، وتقليم أظافر الطغيان وكبح جماح المسلمين .

(١) الآية : ٨ من سورة المتحة .

اعترف بها لأنه يعلم أن طبيعة البشر وسنة الاجتماع كثيرا ما تفضيان الى التنازع ، والبغى ، والتكر للحق ، والاعتداء على الحريات ، والفتنة في الدين ، والاسلام شريعة عملية إصلاحية لا تغمض عن الواقع ، ولا تسترسل وراء الخيال ، ولو لم يقرر الإسلام الحرب ويعترف بها لتكون وسيلة من وسائل المقاومة ودفع العدوان ، وإزالة العقبات من طريق دعوته الى الخير العام ، لقصت عوامل الشر والفساد التي تؤازرها دائما قوى الطغيان والعتاد ، على هذه الدعوة وهي في مهدها ، ولحرمت الانسانية أن تجنى ممراتها الطيبة في معاشها ومعادها .

وإن القرآن يرشد الى هذا المعنى واضحاً اذ يقول ”وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (١)“ . ”وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢)“ . تلك هي نظرة الإسلام الى الحرب من حيث تقريرها والحكم بمشروعيتها .

### أسباب الحرب في الإسلام :

وقد نظر الإسلام كذلك الى أسبابها الداعية اليها والمفضية الى شب زيارها ، نظرة تتفق وغايته من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة ، فلم يبح امتشاق الحسام بدافع الرغبة في الفتح والاستعمار ، ولم يرض عن حروب العسف والظلم والاضطهاد التي كانت وما زالت تثيرها عوامل الجشع والطمع والاستغلال ورغبة التسلط على الضعفاء ، واستنزاف الموارد والتضييق على عباد الله ، واعتبر كل حرب في هذه الدائرة حرب ظلم واعتداء لا يطبق صدورها من أمة تحترم الإنسانية وتعرف لها حقها ، وبذلك حصر الحرب في أسبابها المعقولة وضيق في دائرتها تضييقاً يتناسب مع كونها ضرورة من الضرورات .

وهذه الأسباب هي :

( ١ ) دفع الظلم والعدوان (ب) اقرار حرية التدين (ج) الدفاع عن الأوطان .

وإن القرآن يرشد الى ذلك في عدة مواضع اذ يقول : ” وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٣)“ . ” وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٤)“ .

(٢) الآية : ٤٠ من سورة الحج .

(٤) الآية : ٣٦ من سورة التوبة .

(١١) الآية : ٢٥١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ١٩٠ من سورة البقرة .

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على تصرفهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (١)» .

وأساس الدستور العام في ذلك هو قوله تعالى «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلْتُمُ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُواكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢)» . وقد وضع الإسلام بعد ذلك للحرب نظاما تشريعيًا مفصلا قوامه العدل والرحمة واحترام الحقوق ، والغيرة على الإنسانية . وهذا النظام منه ما يسبق الحرب ، ومنه ما يكون في أثناءها ، ومنه ما يكون في نهايتها .

### (١) النظام الذي يسبق الحرب (٣) :

يقرر الإسلام أنه لا يصح بدء الحرب الا بعد أن تتحقق روح العداة للمسلمين ؛ وأنه يجب على المسلمين اذا تحققوا من ذلك أن يبلغوه الدعوة . وشبهه بهذا ما يسمى في العرف الدولي الحاضر بالإنذار النهائي . وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأحد قواده : «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى إحدى ثلاث» . وقد قال الفقهاء : «إننا بهذه الدعوة نعلمهم أننا لا نقاتلهم على أخذ أموالهم وسي عيالهم ، فربما يجيبون الى المقصود من غير قتال . وقاتلهم قبل الدعوة ثم يستوجب غضب الله» .

### (ب) النظام الذي يكون أثناء الحرب :

لا يريد الإسلام من الحرب تنكيلا ولا تخريبا ، ولا يرضى للناس أن يفسوا فيها واجب الإنسانية من الرفق والرحمة ورعاية العدل والخوف من الله . ولأنه ليأخذ المسلمين في أثناء الحرب بأداب لورعتها الأمم لخفت من ويلات البشرية وضمدت من جراحها .

وقد يكون من الملائم لنا في هذه الظروف التي جنّ فيها جنون العالم وانفتحت فيها على الناس أبواب من الجحيم الذي صنعه الناس لأنفسهم ، وأنفقوا فيه جهودهم وأموالهم وأفلاد أجدادهم ، قد يكون من الملائم أن نذكر شيئا من تلك الآداب الإسلامية للحرب ، ليعلم الناس أن هذا الدين دين الرحمة والرفق والعدل والصلاح :

(١) فالإسلام لا يجوز قتل المرأة ولا الصبي ولا الشيخ الفاني ولا المقعد ولا الأعمى ولا المعتوه . ولا يبيح قتل أصحاب الصوامع ولا الزراع ولا الصناع الذين لا يقاتلون .

(١) الآياتان : ٣٩ و ٤٠ من سورة الحج .

(٢) الآية : ٩ من سورة المنحة .

(٣) انظر في هذا الموضوع ما بيده كتب الحديث والعق في أبواب الجهاد والسير .

( ٢ ) ولا يجوز المثلة ولا التحريق ولا قطع الأشجار ولا هدم البنيان الا اذا بدأ بذلك العدو نزولا على مبدأ المعاملة بالمثل ” وَجَرَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا “ .

( ٣ ) ولا يجوز الإجهاز على الجرحى ، ولا التحريق بالر .

وفي وصاياه صلى الله عليه وسلم لأحد قواده ” لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا حرما ولا تقطع شجرا مثمرا ولا تحرق عامرا ولا تعقرن شاة إلا لما كلكه ولا تعرقن نخلا ولا تحرقه “  
” وإن النار لا يصدب بها إلا الله “ . ومن المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه قل :  
” لا تقتلوا الذرية في الحرب . فقالوا يارسول الله : أليسوا أولاد المشركين فقل : أليس خياركم أولاد المشركين “ .

( ٤ ) ويقرر الاسلام تمشيا مع مبدئه من عدم محاربة غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والمدنيين أنه لا يجوز تجويع الأمة المحاربة ولا منع المواد الضرورية للحياة عنها . وإن كان يباح ذلك بالسبب للجيش المحارب .

( ٥ ) ومن نظم الإسلام في أثناء الحرب الدالة على السباحة أنه يبيح لأفراد وجماعات من الدولة المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل في ديارهم ، وتقيم فيها بعض الزمن وتزاول بها أنواعا من المعاملات التجارية وغيرها في عصمة شيء يعرف في التشريع الإسلامي باسم الأمان . ويقر به عصمة المستأمنين ، ويوجب على المسلمين حمايتهم في أنفسهم ، وفي أموالهم ماداموا في ديار الإسلام . بل يذهب في التسهيل عليهم الى حد بعيد . ذلك أنه يمنحهم أنواعا من الامتيازات ، ويفهمهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من أحكام . ولا يؤخذهم إلا على الجرائم التي تهدد أمن الدولة وسلامتها أو يكون فيها اعتداء على المسلمين وهن في حكمهم .

وقد توسع الإسلام في هذا الباب توسعا عظيما . بفعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان : يسمى بذمتهم أذنتهم . ولم يسترط في ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم . كالتأكد من أنه ليس للمستأمنين قوة ولا منعة . ولا تبدو عليهم مظاهر الركون الى لفنة أو التجسس على المسلمين . وليس معنى هذا أن الاسلام ينسئ حق الإمام المهيم على شؤون المسلمين ؛ بل جعل له بمقتضى هيئته العامة وتقديره لوجوه المصلحة إبطال أي أمان لم يصادف عمله أو لم يستوف شروطه ، كما له أن يقيد أمان الأفراد ويمنع إقدامهم عليه . والأصل في هذا المبدأ الذي تتجلى فيه روح السباحة على نحو لا يعرف له مثال حتى في الأمم المتحضرة الآن قوله تعالى ” وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ<sup>(١)</sup>، والإسلام يبيح بهذا الأمان تبادل التجارة بين المسلمين والمخاريين وتبادل المنافع الأخرى في الصنعة والثقافة وسائر الأعمال .

وهو لا يقيد المسلمين في ذلك إلا بأن يختاطوا لأنفسهم ودينهم ودولتهم، ولذلك يحرم عليهم أن يبيعوا السلاح والذخيرة والحيل والعتاد الحربى إلى أعدائهم . وهو في الوقت نفسه يبيح بهذا الأمان فرصة للمستأمنين تمكنهم من تفهم حقيقة الإسلام وإدراك أغراضه عن كسب . ولقد كان للإسلام من ذلك وسيلة قوية لشر دعوته وإبصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال . ويقرر الفقهاء، " أنه يجب على الإمام — إذا وقت للمستأمن مدة — ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين فإن في ذلك الحاق العسر به ، خصوصاً إذا كانت له معاملات يحتاج في اقتضاها إلى زمان طويل " .

( ٦ ) ومن تقاليد الإسلام في أثناء الحرب رعاية الرسل الذين يقومون بالسفارة بينه وبين المخاريين، وشدة الحرص على سلامتهم وتكريمهم، والمحافظة عليهم حتى يعودوا إلى مأمنهم ورفض الاحتفاظ بهم ولو خلعوا أنفسهم من قلوبهم . وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على ذلك من أروعها ما يرويه أبو رافع إذ يقول : " بعثنى قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأثبته فوق الإسلام في قلبى فرأيت ألا أعود إليهم فقلت يا رسول الله : لا أرجع إليهم فقال إنى لا أخيس بالعهد ولا أحتبس البرد . أرجع إليهم فإن كان في قلبك الذى فيه الآن فارجع إلينا " .

( ٧ ) ومن تشريع الإسلام في أثناء الحرب قاعدة معاملة الأسرى : أمر بالإحسان إليهم وعدم مسمهم بأذى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسير " احسنوا إسهاره " وقال " اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه " وقد حث القرآن الكريم على تكريم الأسرى عامة وجعل ذلك من البر الذى هو علامة الإيمان فقال جل شأنه في التمدح بصفات المؤمنين :

" وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٢) " .

وخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل ، وفدائهم على حسب ما يرى من المصاحبة . وقد من النبي صلى الله عليه وسلم ، وفادى بالمال وتعلم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة ، أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحتها للاسترقاق فقد كان مجازاة لحالة اجتماعية سائدة في الأمم إذ ذلك ، ولم يكن على وجه التشريع العام . وإنما التشريع العام في ذلك هو قوله تعالى : " فَأَمَّا سَاءَ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ (٣) " . وإن في تشريع القرآن للأسرى على هذا النحو

(١) الآية : ٦ من سورة التوبة . (٢) الآيات : ٩٧ و٩٨ من سورة الإنسان . (٣) الآية : ٤ من سورة محمد .

مع تصرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يرشد إلى أن الإسلام يمنح الحاكم من الحقوق في ظروف خاصة ما يستطيع به علاج المشكلات الواقعة من غير أن يكون ذلك تشريفاً عاماً يسرى حكمه على جميع الأزمان .

وكما شرع الإسلام معاملة الأسرى على أساس من الرأفة والرحمة شرع الغنائم على أساس من العدل والمساواة فقرر حق تملكها لمن حازها<sup>(\*)</sup> من المتحاربين : المسلمون وغيرهم في ذلك سواء .

### وسائل إنهاء الحرب :

إن الإسلام شديد الحرص على تحقيق السلم والطمأنينة للعالم . فهو يطلب إلى المسلمين أن يدخلوا في السلم كافة ولا يتبعوا خطوات الشيطان . ويقول لرسوله الكريم "وَأِنْ جَنَّحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" (١) .

الإسلام يصل إلى ذلك من طريق المفاوضات كما هي العادة الطبيعية فيقبل فيه وساطة الرسل وسفارة السفراء من غير أن يتكلف لذلك رسوماً خاصة تؤدي إلى التعقيد أو تثير الإشكال . وعلى هذا ينشئ الإسلام المعاهدات لإنهاء الحرب إنهاءً مؤقتاً ، وهو المعروف باسم الهدنة أو المهادنة ، وذلك كما حصل في معاهدة الحديبية ، ولإنهائها إنهاءً دائماً ، وذلك كما حصل مع أهل نجران على أن يكونوا تحت حماية المسلمين في مقابل شروط ارتضوها .

وهناك نوع آخر من المعاهدات يترك فيه للدولة المعاهدة استقلالها الداخلي تحت ظل من السيادة كما فعل معاوية رضي الله عنه في عهده للأرمن فقد ترك لهم حريتهم في بلادهم ، وأن يعينوا أمراءهم وقضاةهم ورؤساءهم ويحتفظوا بتقاليدهم الدينية والعسكرية .

والإسلام يترك للمسلمين تقدير المصلحة في كل نوع من هذه المعاهدات ولا يقيدهم في ذلك بشيء إلا بشرط واحد : هو ألا تمس المعاهدة قانونه الأساسي ولا تتعارض مع شريعته العامة .

(١) الآية : ٦١ من سورة الأنفال .

(\*) وعلى اشتراط الحوزة ذال الفقهاء : لو كانت الحرب بين دولتين بين المسلمين وبين كل منهما مهادنة ، وكان فتالها في أرضا واستولت إحداها على عاصم من الأخرى ولم تخزها في بلادها فإن العاقبة لا تملك هذه الغنائم ولا يحمل للمسلمين شراء شيء منها ، وبعد ذلك إن حصل غدراً بأصحابها الذين بيننا وبينهم مهادنة . وهذا نوع من الحياذ .

والأصل في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل" وشبهه بهذا ما تقوله الدول من أن المعاهدات التي لا تتفق مع الدستور باطلة. ولا يستخدم الإسلام ذلك الشرط لمصلحة المسلمين فقط. وإنما يطبقه لمصلحة أهل العهد أنفسهم ومن هنا يقول الفقهاء: "إرطاب ملك عهد الذمة على أس يرك وما يحكم به أهل مملكته من القتل والظلم والفساد لا يصح أن يجاب إن ذلك، لأن التقرير على الظلم مع قدرة المنع منه حرام".

والإسلام يبيح للمسلمين عند الضرورة أن ينزلوا عن بعض حقوقهم أو يصالحوا غيرهم على أن يبذلوا له مالا طلبا لخير يروونه فيما بعد، واتقاء لشر يخافونه على أنفسهم. ولنا في صلح الحديبية أوضح مثل على سماحة الإسلام ومرسته في سبيل الحصول على الإسلام.

ومما يتصل بمعاهدات الصلح تقرير الإسلام لمبدأ الجزية. وليست الجزية كما يتصورها بعض الناس بدلا عن إسلامهم أو عن دماهم وإنما هي علامة نلى خضوعهم وكفهم عن الفتنة واعتراض سبيل الدعوة، ومعونة تهيء لهم الاشتراك في مصالح الدولة والارتفاق مما يرتفق به المسلمون. يقابلها من جانب المسلمين فوق ذلك حمايتهم من الاعتداء عليهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم. وقد جاء في كتاب الحراج للإمام أبي يوسف أن أبا عبيدة يهد ما صالح أهل الشام وجبي منهم الجزية والحراج بلغه أن الروم قد جمعوا للمسلمين جموعا لا قبل لهم بها. فكتب الى أمراء المدن المصالحة "أن ردوا على أهل الذمة ما حبيبت منهم من جزية وقبولوا لهم إما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد باعنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد شرطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن على الشرط وما كتب بيننا وبينكم إن نصرنا الله". ولهذا لم ينس الإسلام فيها واجب المروءة والرحمة. فهو لا يجوز أن توضع على امرأة ولا صبي ولا ضعيف عاجز عن الكسب ولا على الرهبان الذين لا يخالطون الناس.

### العهود في نظر الاسلام :

هذا والاسلام يحتم على المسلمين أن تكون سياستهم في العهود على وجه عام مبنية على التراضى وحب السلام وإقرار الأمن والعدالة. وهو يمقت العهود التي يكون أساسها التهمر والغلبة وتحكيم القوة، ويمقت الخداع والحيانة في العهود، ويصف الناقضين للعهد بأنهم شر الدواب عند الله. ويأمر بالاشتداد على الخائنين الذين لا يرقبون إلا ولا ذمة. ويوجب أن يكون نبد العهد إذا جد ما يقتضيه على سواء بينه وبين الخصوم. بل يوجب تمكين العدو من إيصال خبر التبدل الى أطراف بلده وأنحاء مملكته. وفي ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه

الحنفي وهو بصدد قوله تعالى "وَأَمَّا تخافن من قوم خيانة فانيذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين" (١). إنه لا يكفي مجرد اعلانهم بل لابد من مضي مدة يتمكن فيها ملكهم بهد عنه بالنبيذ من انفاذ الخبر الى أطراف مملكته. ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شيء من أطرافهم قبل مضي تلك المدة. ويجعل بنا في دنا المقام أن نسوق آية من الكتاب الكريم هي بحق دستور الإسلام في الوفاء بالمهود. قال تعالى: "وَأَوْفُوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بما توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كآتي نقضت عنكم من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة" "ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فترل قدم بعد ثبوتها وتدوقوا سوء بما صدقتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم" (٢).

وقد بلغ من حرص الإسلام على الوفاء بالعهود أنه جعل العهد مانعاً من وجوب النصرة الدينية ، وذلك كما إذا أسلم جماعة في دولة أجنبية ، ثم اضطهدتهم دولة بينها وبين المسلمين عهد ، فإنه لا يجعل لدولة الإسلام أن ينصروهم على تلك الدولة ، وفاء بما هنا من عهد وميثاق وفي ذلك يقول القرآن الكريم "والذين آمنوا ولم يهاجروا ما نكم من ولا يهتم من شيء حتى يهاجروا وإن امتنعوا في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق" (٣). هذه صورة مصغرة لأهم الفوائد التي نظم بها الإسلام علاقة المسلمين بغيرهم من الدول.

معاملة الدولة الاسلامية لمن يعيش في بلادها من غير المسلمين :

كما نظم الإسلام العلاقات الدولية العامة على الأسس التي أوضحنا ، وضع أساساً صالحاً لتنظيم معاملة غير المسلمين الذين يقيمون في بلاد الإسلام ويقوم ذلك الأساس على ما يأتي :

- (١) اشتراكهم مع المسلمين في الحقوق والواجبات العامة .
- (٢) جواز الرجوع بهم في مسائلهم الخاصة الى حاكم منهم . وأن يحكم الحاكم المسلم بينهم بمقتضى ما يدينون به .
- (٣) الإحسان إليهم في الروابط الاجتماعية العامة على حدود ما بين المسلمين بغيرهم مع بعض ، وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم وصايا كثيرة في حسن معاملتهم والتوصية بهم .

(١) الآية : ٥٨ من سورة الانفال .

(٢) الآيات : ٩١ و ٩٢ و ٩٤ من سورة النحل .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة الأمل .

(٤) تركهم وما يدينون من غير تحكم في عقائدهم ولا في تكاليفهم ولا في رسومهم وطقوس عباداتهم ، ما دامت على وجه لا يفتن المسلمين في دينهم . وبهذا يكون الإسلام قد قرر الحرية الدينية وكفل حمايتها منذ أربعمائة عشرين سنة في حين أنها لم تطلق في أوربا من الاضطهاد ولم تسلم من الفتك والتعذيب إلا في هذه العصور الحديثة .

هذه هي القواعد التي ينظم بها الإسلام العلاقات الدولية عامة كانت أو خاصة وضع أساسها القرآن وبيتها السنة ، وشرحها عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده . ثم تناولها التابعون وفقهاء المسلمين فأعملوا فيها الرأي والتخريج شأنهم في الشريعة كلها حتى اتسع نطاقها لتنظيم كل ما يجتهد من مظاهر العلاقات على وجه يحقق النفع العام والسلام الشامل . وضع الإسلام هذه القواعد وعرفها علماءه وفقهائه في وقت كانت فيه دول الحضارة الفسفرة تتعثر في عادات حافة لا تعرف للإنسانية حقاً ولا تقيم للعادلة والسلام وزناً ، ثم تلتها دول الحضارة الناشئة فأخذت تمخطو في آثار الحضارة الفائرة حتى أسس فقيه هولندي في القرن السابع عشر ما سماه القانون الدولي الحديث ووضعه على مبادئ القانون الطبيعي الذي يرفض القانونيون لأن الإعتاد عليه كقانون له احترام القوانين ، ولقد حاول العالم أن يضمن السلام في عصرنا الحاضر بالرجوع الى هيئات دولية محكمة ولكن المجازر البشرية الجارية الآن في أقاليم الأرض تنطق بالفشل اللذريع الذي أصاب العالم في الوصول الى غايته .

فأين هذا من قواعد الإسلام الصريحة العادلة ، وأين لهم ضمان الإسلام إذ يجعل هذه القوانين أحكاماً تكليفية دينية لا يسع المسلمين بمقتضى دينهم إلا أن يعودوا حقوقاً يأتها ويعملوا على تنفيذها وتحقيقها سواء فيما يختص بهم أم بغيرهم ، فهي شرع الله الذي لا مناص من الزول عليه والعمل بمقتضاه من غير تفرقة بين مسلم وغير مسلم . ويقول الله تديلاً لبعض تلك الأحكام الدولية : **”ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ“** (١) ويقول : **”إِلَّا تَقْعُوبَهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ“** (٢) ويقول : **”وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرِهِمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ“** ، **”أَحْكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ“** (٣) .

### اقترح :

أيها السادة : يذكرني مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعي في عرضه هذه الموضوعات على جمعات البحث ، بمؤتمر القانون الدولي المقارن الذي عقد في سنة ١٩٣٧ بمدينة لاهاي وشملت فيه الشريعة الإسلامية بموضوعين عظيمين : علاقة الشريعة الإسلامية بالقانون

(١) الآية : ١٠ من سورة البقرة (٢) الآية : ٧٣ من سورة الأمل

(٣) الآيات : ٥٠ و ٤٩ من سورة المائدة

الرومانى ، والمسئولية المدنية والجنايية فى الشريعة الإسلامية وقد ظفرت الشريعة فى هذا المؤتمر الأوروبى بقرارات أهمها :

أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة وأنها صالحة لمجاراة التطور الحديث ، وقد أوصى المؤتمر هيئة المؤتمر بأن تعنى فى أدواره المقبلة أشد العناية بمسائل التشريع الإسلامى ، وأن تدعو الى الاشتراك فى أعماله ودراساته أكبر عدد ممكن من أقطار المسلمين .

وإنى لأتتهز هذه الفرصة فأقترح على مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى المصرى المسلم أن يعمل منذ الآن على اعداد العدة لإقامة مؤتمر عالمى تكون مهمته استخراج القواعد الشرعية التى تتخذ أساسا لتقنين شرعى عام ، يظهر به جلال هذه الشريعة وصدق ضمانها لمصالح الناس مهما تقدمت حياتهم وتطورت حضارتهم .

هذا هو اقتراحى أتوجه به من منبر هذا المؤتمر الى جميع رجال الفكر فى مصر والشرق ، أتوجه به الى ملوك الإسلام وفى مقدمتهم حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الفيور على دينه ، الحريص على شريعته .

أتوجه به الى علماء الشريعة وعلى رأسهم عالمان عظيمان من أفذاذ علماء الإسلام لها تاريخ مشهود فى التخرىج الفقهى والتطور التشريعى الإسلامى الأستاذ الأكبى والمفتى الأكبى . أتوجه به الى رجال الحقوق ومن خرجت من رجال القانون الحريصين على خدمة شريعتهم واعلاء شأنها بين القوانين الحديثة .

أتوجه به الى هؤلاء جميعا وأحلمهم إياه أمانة يسألون عنها أمام الأبناء والأحفاد ويسألون عنها أمام الله والرسول " وَقُلْ اَعْمَلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَعَمَلُكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١) " .

محمود شلتوت

(١) الآية : ١٠٥ من سورة التوبة